عندما كانَ هنالكَ مكانٌ للصراخْ

أنس ناصيف

مجموعة قصصيَة

الفهرسة أثناء النشر - إعداد دار ميسلون للطباعة والنشر والتوزيع

أنس ناصيف

عندما كانَ هنالكَ مكانٌ للصراخْ (مجموعة قصصية)

(44) ص، 21سم.

ISBN 978-605-79645-7-1

9 786057 964571

Printed Book ISBN: 978-605-7964-57-1
E Book ISBN: 978-605-7964-56-4

العنوان بالإنكليزية:

When there was a place to shout

By Anas Nassief

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة
عن اتجاهات يتبناها مركز حرمون للدراسات المعاصرة

الطباعة والتوزيع

ميسلون
للطباعة والنشر والتوزيع
Maysaloon for printing publishing and distribution

هاتف:
الدوحة، قطر: 97444885996+
إسطنبول، تركيا: 902125240405+

صندوق البريد:
22663 الدوحة، قطر
34091 إسطنبول، تركيا

البريد الإلكتروني: info@maysaloon.com
الموقع الإلكتروني: www.maysaloon.com

Elma basım Elma Printing & Finishing
Sefaköy, 34295 Küçükçekmece/ Istanbul
+90 212 697 30 30

© جميع الحقوق محفوظة لمركز حرمون للدراسات المعاصرة ودار ميسلون للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعة الأولى

إسطنبول، تركيا - كانون الأول/ ديسمبر 2018

Scanned with
MOBILE SCANNER

عندما كانَ هنالكَ مكانٌ للصراخْ

أنس ناصيف

أنس ناصيف

عندما كانَ هنالكَ مكانٌ للصراخْ

مجموعة قصصيَة

المجموعة الفائزة بالجائزة الثالثة

المحتويات

الزنزانة ذاتُ الأرجل 9

عندما كان هنالكَ مكانٌ للصراخْ 15

سأعودُ يومًا ملعب كرة قدم.................... 19

نهايةُ معركة.. بدايةُ حياة 23

بذراعين مفتوحتين.............................. 27

الهبوط على شجرة الحب 31

صانع الذكريات................................... 37

الزّمن ودرّاجتي العجوز 39

شريحةُ لحمٍ تجيدُ التذكر 41

الزنزانة ذاتُ الأرجل

الأيّامُ التسعة الأولى كانت سريعة، مألوفة، ولنقل إنّها متوقعة، إلى حدٍّ بعيد، كانوا "عادلين"؛ إذ عاملوا الجميعَ بالقسوة نفسها، وكانوا مهنيين، أدوا الوظيفةَ المنوطةَ بهم بإتقانٍ شديد، وكانوا -كلهم- رجالًا.

عنصرُ المفاجأة المفقود قتل ارتباكًا كان ممكنَ الحدوث، وجعل ردّاتِ فعلي رائعةً، بل مثاليّة؛ إذ قابلتُ مهنيّتهم بمهنيّةِ سجينٍ، يَعْلم علمًا تامًا أين هو، وماذا عليه أن يفعل. ربطوني؛ رُبطتُ، عَصبوا عينيّ؛ لم أعدْ أرى، أنزلوني الأدراجَ؛ نَزلتُ، أدخلوني غرفةَ التحقيق؛ دخلتُ، ضربوني؛ توجّعتُ، سألوني؛ صمتُّ. عذّبوني؛ تألّمتُ، سألوني؛ أجبت.

أهمُّ ما يميّزُ مرحلةَ التحقيق هو طبيعة العلاقة مع من يضربك؛ إنّها علاقةٌ مباشرةٌ، متينة، شفّافة، غير معقّدة، وأنت، أنت متحررٌ فيها من جميعِ المسؤوليّات التي ترهقكَ في الخارج، أنتَ سجين؛ يا لَروعةِ هذا الامتياز!

شيءٌ وحيدٌ عليكَ فعلهُ بعناية، هو أن تسحبَ ذاكَ الخيطَ الفاصلَ بين الخيال والواقع، ثمّ تجمعَه بشغف، وتحشو به مؤخّرة العالم؛ عندئذ، سترى الأمور من زوايا متحرّكة، وقد تَنْعم بمقارباتٍ مسلّيةٍ جدًا.

الفَخُّ الخطِر الذي عليك تجنّبُه يتجّسدُ في التساؤل الآتي: لماذا يَضرِبُك؟! للوهلة الأولى يبدو سؤالًا طبيعيًّا ومشروعًا، لكنْ إذا استغرقتَ في التفكير فيه، فلن تجدَ فيه أكثرَ من خدعةٍ بصريّة، ذلك؛ لأنّ المحقِّق -في الحقيقة- لا يضربُكَ، وإنّما يضربُ وجهَك، ظهرَك، قدميْك. اسألْ نفسكَ، وبكلّ جرأة: "ما علاقتي أنا بالأمر؟!"، وكن واثقًا من أنك لستَ رأسَكَ ولا ظهرَكَ؛ أنت شيءٌ غيرُ معروف، أنت كائنٌ غيرُ مفهوم، أنت أحجيةٌ لم يتمكّن سقراط نفسُه من حلِّها.

وخلال تلك اللحظات التي تشعرُ فيها، وكأنّه يحاول أن يحاكي بملامحكَ إحدى لوحات سلفادور دالي، وأنّه يؤلِمُكَ جدًّا، وأنّك تكرهُه إلى أبعد الحدود، احرصْ كلَّ الحرص على أن تكونَ كراهيتُكَ له محبوسةً في تلك اللحظات، فحسب؛ أن تكون عابرةً، ألّا تتسرّبَ إلى مجرى المشاعر المعمِّرة، ذلك؛ لأنّ الأمر برمّته لا يتعدّى كونَه نوعًا من التواصل، ومحاولةً منه لفهمكَ بطريقته الخاصّة. لماذا؟

تفسيرُ ذلك أنّه إنسانٌ -كباقي البشر- غريبُ الأطوار؛ ولتفهم ذلك يجب عليك، عند رؤيته في المرّة الأولى، أن تتجاهلَ سطوةَ الانطباع الأوّل الذي ينبثقُ من كتلة الشّعْرِ السوداء العنيفة المستلقية فوق شفته العليا، وعليك أن تعْلم أن هذا "الموظّف" يعيد صوغكَ من جديد، بعد أن يأتي من منزله الدافئ،

هناك، حيث ينتهي من تناول الإفطار مع عائلته الصغيرة، فيقبّلُ زوجته الحنون قبلةً محمومةً بالحبّ، ولديه ابنةٌ في الصفّ الثالث، يربط حذاءَها، ثم يمسكُ بيدها، ويخرجان من البيت، وفي طريقهما إلى مدرستها يعِدُها بالذّهاب إلى "الملاهي" في عطلة نهاية الأسبوع، وهو ما يهوِّنُ عليها ثقلَ حقيبتها الزرقاء، وقلقها من المذاكرة؛ يعانقها

قبل أن تغيبَ عن ناظريْه بين بقيّة الأطفال، ثمّ يكمل طريقَه إليكَ، مُتخيّلًا ابنتَه طبيبةً لامعةً، تُخفّفُ من آلام الناس، وتعتني به بعد التقاعد.

لا تستغربْ إذا قلتُ لك -أيضًا- إنّ هذا الموظّف كان طفلًا في يوم من الأيّام، وجميلًا، وحسّاسًا إلى درجةٍ فائقة؛ إذ كان يبكي عند سماعه صوتًا ناعمًا يغنّي بشجن، وكان يضحك. صدّقني، كان يضحك كثيرًا عندما تقترب منه أمُّه، حاملةً صحن السيريلاك، وكان يضحك أكثر، وتبرقُ عيناه عندما تطعمُه، وهي تقولُ له: "نَم، نَم، نَم."، أقسم أنّها كانت تقول له: "نَم"، وكان يضحك.

في اليوم العاشر انتهت مرحلةُ التحقيق، اقتادوني إلى زنزانة صغيرة تحت الأرض، وبعدئذ؛ بدت الأيّام صعبةً، غريبةً، غيرَ متوقّعة، إلى حد بعيد؛ إذ بعد مدة وجيزة أصبحتُ أشبهَ بثمرةِ خِيارٍ، رُفعتْ عنها السكّينُ منذ لحظات، بعد أن قطّعتْها إلى شرائحَ عرضانيّة، إلا أنّها حافظتْ على قوامها؛ بسبب وضعيّتها الأفقيّة؛ لذلك، فالأصحّ أن ندعوها "خيارة" لا شرائحَ خِيار؛ ولهذا، فقد بقيتُ مستلقيًا، خوفًا من أن أقفَ، فأنهارَ إلى شرائحَ؛ فتذهبَ "كينونتي".

وعلى الرغم من هلوسات الوحدة التي أخذت تهاجمني، فقد عملتُ على أن أكونَ هادئًا بما يكفي للمضيّ قُدُمًا؛ نعم، قُدُمًا، قُدُمًا، فحسب، دونما معرفةِ إلى أين سيؤدي بي هذا "القُدُمًا"، ومن دون اكتراثٍ له أيضًا.

بعد نحو شهرين، وبينما كنت أحدّق في بقايا الكتابة المتراكمة على حائط الزنزانة، أخذتْ تَطَؤني رائحةٌ غامضة، أقول "غامضة"؛ لأنّ لها صوتًا، صوتًا أخذ ينْفذ من خاصرتي اليمنى، لم يكن صوتًا من النوع الذي يدخل من أذنك في اتجاه تلكَ "الكرة"؛ لتفسره هناك، كان الصوتُ -بطبيعته- تائهًا، خائفًا، قد يثقبكَ من أيّ مكان، ومعي استطاع الولوجَ من الخاصرة، مخترقًا جلدي، آخذًا شكل أنبوبِ تنظيرٍ طويل، أعمى ومنفلتِ العِقال، يتحرّك في كلّ الاتجاهات، يعضّ، يقرص، يلعق، إحساسُكَ به لا يجيءُ من خلاله، وإنّما من خلال آثاره؛ ثقوبٌ قلبيةٌ ضيّقةٌ مفتوحٌ بعضُها على بعض، أصبحتْ بعد مدّةٍ كشبكةِ أنفاقٍ معقّدة، يقودُ فيها رجلٌ دراجةً ناريّةً، سعى طويلًا إلى الخروج من هذه المتاهة، وأظنّه -مع الوقت- قد تصالح مع واقع، مفادُه أنّ هذه الأنفاق باتتْ وطنَه الجديد، وتصالحتُ -أنا- مع تلك الحكّة التي تثيرها عجلاتُ الدراجة في قلبي، وقد اتخذتُ قرارًا بتجاهلِ آلافِ الديدان التي كانت تسري في عروقي. ولا بدّ من أن أذْكرَ الحزنَ الذي ظهر على هيئةِ جيوبِ دمعٍ منتفخةٍ، استوطنتْ حول مفاصلي، وكذلك سدّادةَ الزجاجاتِ التي علقتْ في أعلى قصبتي الهوائيّة؛ فأصابني الرّعبُ من أن تكون إنذارًا على أنّ رئتيَّ ستمتلئان بالنبيذ عمّا قريب.

الشيءُ الوحيد الذي لم يتسبّب لي بأيِّ ألم هو بكرةٌ من الألمنيوم، ثُبّت طرفاها بِوركَيَّ من الداخل، وكانت تدور من دون توقّف، في فراغٍ لامتناهٍ يمتدّ في أحشائي المتناهية. وكانت ثمّةَ، بين الفينة والأخرى، مقصلةٌ تهوي على عنقي بسرعة الضوء، فتقطعها ولا تقطعها. وفي لحظةٍ ما، بعد بضعة أشهر، صرتُ ألمحُ -باستمرار- الكرةَ الأرضيّة تدور في

وسط الزنزانة، معلقةً بخيطٍ لامرئي، يتدلّى من السقف. وفي الفترة التي أملتُ فيها بحصول معجزةٍ ما، عرفتُ أنني بلغتُ قعرَ اليأس.

***

بعدَ انقضاءِ ما يزيد على السنة ونصف السنة، في أحد أيّام المرحلة الأخيرة، في النهار أو في اللّيل، ومن دون مقدّمات واضحة، بدأت الزنزانة تتمايلُ يمينًا وشمالًا، وراح جسدي يتهدهدُ بثقلٍ داخلها، كانت تقف، تجلس، تمشي، تركض، وأحيانًا تطير، وفي بعض الحالات تسبحُ وتغوص، وعِوضًا من أن أشاهد بعينيّ الأماكنَ التي تنقلت فيها، صرت أراها داخل رأسي عبر شاشةِ إسقاطٍ دماغيّة؛ لم أترك مكانًا لم أذهب إليه، كنتُ حرًّا وسعيدًا جدًّا. في البداية ذهبتُ لزيارة أمّي، ثم لرؤية خطيبتي التي شاهدتُ معها عددًا هائلًا من الأفلام، وكذلك أدمنتُ ملاحقةَ الفتيات الجميلات، وكنتُ أحرص على الوجود كلَّ جمعة في "الملاهي"؛ لِألاعِبَ ابنةَ المحقّق، كنت أدفع أرجوحتها، فتدوّي ضحكتها عاليًا، إلى جانب والديها اللذين يقضمان "البزرَ" على المقعد الخشبيّ. وفي المحصلة، يمكنني القول إنّني تجوّلتُ في أغلب المناطق التي تعذّر عليّ السّفرُ إليها حينما كنتُ طليقًا؛ فقد جبتُ معظمَ عواصم العالم، وارتدتُ أجملَ شواطئ العراة، واستمتعتُ بجمال الطبيعة، وتناولتُ العشاء في أفخم المطاعم. وكنتُ أتنقّل بين تلك الأماكن بلمح البصر.

وعلى الرغم من أنّ السّجانين كانوا يفتحون عليّ باب الزنزانة مرتيْن في اليوم، إلا أنّهم لم يلحظوا أيّ شيء. الحمقى كانوا يعتقدون أنّ رؤيتهم لي في الزنزانة دليلٌ على وجودي في السجن.

عندما كان هنالكَ مكانٌ للصراخْ

منذ أكثر من عشر سنوات، أيْ منذ حرب وبعضِ الوقت، وقبلَ أن أتجاوز السابعة عشرة، كنّا قد اعتدنا، أنا وصديقي الذي علّمني حلاقةَ الذقن، الذهابَ إلى منطقةٍ مقفرةٍ تبعد من القرية نحو خمسة كيلومترات؛ لسببيْن فقط: لكي نُدخِّن سرًّا، ولكي نصرخ.

كنّا ننهي جزءًا من واجباتنا المدرسيّة، ثمّ نلتقي بعد الظهر، نستمع إلى الموسيقا، نشرب المتّة، ونتحدّث، ثمّ نسأل الحزنَ: لماذا يحشدُ في صدورنا جميعَ أشيائه؟ وكلّما عجزنا عن إجابةٍ تقْنعنا، انطلقنا بدرّاجته الناريّة البرتقاليّة شرقًا.

نسلكُ دربًا ترابيّةً بين الحقول، وإنْ رأينا أحدًا في طريقنا، فسيكون راعيًا يركب حمارَه، عائدًا برفقةِ أغنامه من المراعي، يسير نحو القرية، يريد أن يصلها قبل الغروب.

نُوقِف الدرّاجة على هضبةٍ، تمتدّ تحتها سهولٌ حمراء، ينمو فيها الصمتُ وأعشابٌ قصيرة، نجلس على صخرةٍ عالية، نُشعل سيجارتين، نُدخّن، نصمت، نراقب السكينةَ، وهي تجري أمامنا فوق السهوب، برشاقةٍ وغْل!

وفي لحظةٍ برّاقة، غامضة، أنظرُ إليه، ينظرُ إليّ، ثمّ ننظرُ معًا نحو الأفق، ونبدأ بالصراخ.

وما إنْ نَفتح أفواهَنا؛ حتّى تَسحبَ أصواتُنا كلَّ ضيقنا، وترميه؛

ليتلاشى ببطءٍ في البرّيّة الخاوية، عندئذ نُحسّ بأنّنا امتلأنا بالفراغ، ذلك النوعِ من الفراغِ الذي لا يَصلحُ سواهُ وقودًا للاستمرارِ والتحمّل، وعندئذٍ، نهمُّ بالعودة إلى القرية، ونحن نُغنّي فوق الدرّاجة التي تناورُ بمشقّةٍ حجارةَ الطريق.

وبعد أن فرّقتنا الأيّامُ، كلًّا في اتّجاه، بدأت الحربُ، فلم يعد ثمّة مكانٌ للصراخ، إذ أصبحتْ هذه المنطقة ــــ مثلَ غيرها ــــ جبهةً للقتال، وغدت المناطقُ المأهولةُ أعشاشًا للموت والدمار، وبات من شأنِ الصراخ أن يزيدَ من منسوب الذعر؛ فيجعلَكَ بطلًا لقصّة غريبة، لن تتركَ لسانًا تتزحلق عليه؛ ولأنّي لا أملك مثلَ هذا الطموح، فلم أتجرّأ على الصراخ منذ ذلك الوقت.

بيدَ أنّني، حين أكون في الشارع أحيانًا، تستولي عليَّ تلك اللحظةُ الغامضة، فأفتح فمي، لكنّني أكتمُ الصوت؛ كي لا يرتمي الناسُ من حولي أرضًا، ظنًّا منهم أنَّ قذيفةً ستسقط بينهم، أو أنَّ شخصًا ما يرغبُ في تفجيرِ نفسه، بل إنني أرفضُ أن أصرخَ منذ أن نشبت الحرب؛ إذ كيف أصرخ ورفيقُ الصّراخِ يعجز عن ذلك منذ صيف عام 2011.

صديقي لم يعد يفرح ولا يحزن، صديقي الذي كنتُ أجتازُ معه -في الصفّ العاشر- ثمانية كيلومترات خلال أربعين دقيقة، لم يعد يركض، لم يعد يبكي، لم يعد يضحك؛ صديقي قتلته رصاصةٌ من أحد الذين مهّدوا لكلّ هذا الخراب.

لذلك لن أصرخَ من دونه، لن أصرخ، وإنْ خزّنتُ في قلبي كلَّ

أحزان الدنيا، أو جررتُ بحبلٍ يمتدّ إلى عنقي كلَّ الأحياء المدمّرة، وكلَّ حكايات القهر، وكلّ الذكريات. لقد قررت أن أصمتَ، ولو بقيتُ إلى آخرِ العمر أشربُ من دموعِ الأمّهات.

اليوم لا أحتاجُ أن أمدَّ رأسي كثيرًا؛ كي أنظرَ داخلَ نفسي لأجدَ أطنانًا من الرّكامِ والهراء، تنتظرُ أن تُفرَّغ بصرخةٍ واحدة؛ ولأتذكّرَ أنّني فقدتُ صديقَ الصراخ إلى الأبد، وأنّني ما زلتُ أتجنّبُ لقاءَ أمّه؛ ولأدركَ أنّ هذه البلاد ـــ عندما أغمضتْ جفنيْه ـــ أغلقتْ مع عينيهِ كلّ أمكنةِ الصراخ؛ عينيه اللتين تقولان لهذا الوطن: أبناؤكَ لا يريدون منكَ شيئًا، سوى مكانٍ للصراخ.

سأعودُ يومًا ملعب كرة قدم

بعد أحدَ عشرَ عامًا منذ استقلال سورية، وقبل بضعةِ أشهرٍ من وحدتها مع مصر، أواخرَ عام 1957، ولدتُ في شرقيِّ العاصمة دمشق.

أُطلق عليَّ اسم "أستاذ العباسيين الدوليّ" تيمّنًا بالحقبة العباسيّة من التاريخ العربيّ الإسلاميّ، وعلى الرغم من أنّني لم أُدركْ يومًا العلاقةَ التي تربط الخلفاءَ العباسيّين بالرياضة، فقد تكيّفتُ، بمرور الزمن، مع هذا الاسم؛ ذلك أنّ خيارَنا الوحيد، نحن المنشآتِ الوطنيّةَ في هذه البلاد، أن نوصَمَ بأبعدِ الأسماء عنّا، وكأنّ قرارًا قد اتُّخذَ بألّا يكونَ لنا من أسمائنا أيُّ نصيب. لكن، قد تجد مبنًى أو جسرًا أو شارعًا يعشقُ اسمَه، كحال جارتي المسكينة التي أُطلّ عليها (ساحة العباسيين) التي تَسقط عليها، منذ أعوام، قذائفُ الهاون أكثرَ من حبّات المطر؛ وقد شُغلتْ بجراحِها إلى حدٍّ أن نسيتْ صراعَها التاريخيّ مع ساحة الأمويين، حول أحقّيّةِ استضافة التجمّعات البشريّة والمهرجاناتِ الخطابيّة.

***

امتدّت مرحلةُ مراهقتي حتّى عام 1976؛ إذ تحوّلتُ من ملعبٍ صغيرٍ، مُخصّصٍ لألعاب القِوى، إلى ملعبِ كرةِ قدمٍ، يتّسع لثلاثين ألف متفرّجٍ، دُفعةً واحدة. لكنّ اندلاع هذه الحرب جعلني من أوائل الخاسرين؛ إذ ساقوني إلى الخدمة الاحتياطيّة، ورحتُ أمضي الليل والنهار ثكنةً عسكريّةً، تفصلها عن جبهة حيِّ "جوبر" بضعُ مئاتٍ من الأمتار؛ فأجدَ نفسي في كلِّ لحظةٍ مشطورًا بين الماضي والحاضر، عالقًا

ما بين الحياة والموت. ولعبتي الوحيدة التي أدمنتُ ممارستَها هي ايجادُ الفوارق بين وقع أقدام اللاعبين، وأقدام الجند، وبين هتاف الجماهير وصراخِ الجرحى، وبين صافرات الحُكّام وصفّاراتِ سيّاراتِ الاسعاف، وبين حِدّةِ تصفيقِ المشجعين وحِدّة أزيزِ الرصاص؛ حتّى إنّني رَصدتُ التفاوتَ بين سواد شواربِ المسؤولين الذين كانوا يتصدَّرونَ -خلفَ كروشِهم- المنصّةِ الرئيسةِ، في أثناء منافسات الدَّوري، وسواد شواربِ الضبّاط الذين اتّخذوا من غرف تبديل الملابس مكانًا للنوم.

***

وعلى امتدادِ رُقعةِ البلاد، كنت وزملائي، حتّى عام 2011، من الأمكنة النادرة التي يُسمح فيها بالصراخ. هنا صدحَت الحناجرُ باسم سورية، وأُلّفت الأغاني والأهازيج من أجلها، هنا ربحنا قليلاً، وخسرنا كثيرًا، ومن هذه البقعة انفجرَ المعلّقُ مرةً: "غووول... غووول... يا إلهي، نسخة كربونيّة، هدف بالطريقة نفسها، وفي التوقيت نفسه، وللاعب نفسه، عفوًا -مشاهدينا- إنّها الإعادة التلفزيونيّة للهدف السابق!".

من فوق مدرّجاتي انتُهكتْ أعراضُ الحُكَّام بالشتائم، إثرَ احتساب أيِّ مخالفةٍ للخصم، من شأنِها أن تُغيِّر مجرى المباراة، أو تُخرجَ سورية من المنافسة. ولطالما أَقسَمَ الجميعُ على ألاّ يرجعوا إليّ بعد "هذه الخسارة المذلّة"، لكنهم عادوا. هُزمنا مرّةً ومرّتين وألفًا، لكنّهم عادوا. لم نصل إلى كأس العالم، ومع ذلك؛ لم تستطعْ أماراتُ الهزيمة المجلجلة التي ارتسمتْ على الوجوه أن تمنعَ السوريين من الابتسام، بعد سماعهم الجملةَ الشهيرة: "الفوز مهم، لكنّ المشاركة أهمّ، هاردْلكْ لمنتخبنا، هاردْلكْ لسورية."

***

على أي حال، لن ينفعَ التحسُّرُ في شيء؛ فما ذهب قد ذهب. والسؤالُ الحقيقيُّ الآن: ما الذي سيأتي؟

لم أتمكّنَ -حتّى اللحظة- من تقديم الإجابة، حالي في ذلك حالُ باقي الملاعب والبشر والمدنِ والأزهار، وحالُ أيِّ شيءٍ ينبضُ في هذه الأرض، ولم تسعِفْه مقدراتُه العقليّة في فهم طبيعة هذه الحرب؛ فعندما أفكِّرُ في أمرها، ينتابني شعورٌ اختبرتُه منذ سنوات، حين نهض المذيعُ عن كرسيِّه متحمِّسًا لتسديدةٍ ضلَّت طريقها إلى الشِّباك، صارخًا: "يا حراام، كرة زاحفة تعلو العارضة بقليل!"، عندئذ رأيتُ -أوّل مرّةٍ في حياتي- اللامعقولَ مُتجلّيًا في أبهى صوره، ولا بُدّ من أن أعترفَ لهذه الحربِ بأنّها كانت أمهرَ مَن استطاعَ الإفلاتَ من تلكَ القبضة، وأدهاهم.

***

وفي الختام أوصيكم، قبل كلِّ شيء، بأن تُحافظوا على وحدة سورية، ذلك؛ لأنّي لا أتخيَّلُ يومًا لن تتمكّنَ فيه جماهيرُ نادي الفتوّة من الارتماء في أحضاني، قادمةً من ضفاف الفرات، من دير الزور؛ لتشجِّع فريقها، رافعةً شعارها المُفضَّل:

"بالزورْ، بالقوةْ، حتربح الفتوّة."

المخلص دائمًا: ملعب العباسيين

سورية

نهايةُ معركة.. بدايةُ حياة

لقد قرّرتُ أن أغادرَ هذه المعركة. نعم، سأغادرُها الآن. لقد قرّرتُ أن أبتعدَ عن جميعِ أنواعِ الجثث، أن أقبّلَ الخدودَ الحمراء، وأن أرقصَ طويلًا في ضوءِ القمر.

سأرمي بندقيّتي، وأُلقي بخوفي ورائي، وأرحلُ إلى بيتنا؛ لأربّي على السطح كلّ أصنافِ الحمام، سأفتتح ورشةً على الأوتسترادِ المقابلِ للبحر، ورشةً لإصلاح عجلاتِ الشاحنات المتّجهة إلى الميناء، وسأعلّقُ يافطةً ضخمةً، وأكتبُ عليها: "ورشةُ القبلات لإصلاحِ العجلات.".

سيكون لديّ عملٌ كثير؛ إذ يجبُ عليّ أن أُفتّشَ –في كلِّ يوم– بين صخورِ الشاطئ عن بيضِ النوارس، وعندما أجدهُ لن ألمسَه أبدًا، لن أفعلَ شيئًا. سأفتشُ عن المزيدِ، فحسب.

لقد حسمتُ أمري، وها أنا الآن أتركُ أغراضي في الخيمةِ المثقبةِ بالرصاص؛ لأزرع الخضارَ في حديقةِ المنزل، ها أنا أهجرُ أصواتَ المدافع؛ كي أغرسَ في الزاوية الملائمة شجرةَ ليمونٍ تعشقُ الطيورَ والماء.

أريدُ أن أبقى إلى جانبِ أمي، قربَ المدفأة، لقد اشتقتُ إليها كثيرًا، اشتقتُ إلى الإصغاءِ للمطر، وأنا أراقبُ كفيّها كيف تنقّيانِ العدسَ بهدوء.

ينبغي عليّ -أيضًا- التوجّهُ إلى المطبخ، ثمّ الصعودُ إلى السقيفة، والإحساسُ بالظلم الذي تعانيه الأغراضُ المنسيّةُ هناك، وبعد أن أشعرَ بذلك، سأنبشُ من بينها مرطبانَ دُحلي، فأُخرجُ كلّ واحدٍ منها بمفرده، وأُلّمعهُ بحنان، ثم أهديها ابنَ أختي الصغير.

وعندما يأتي الربيع، سأُصنِّعُ لأولاد الحارة الطائراتِ الورقيّة، وسنشكّلُ أسطولًا جويًّا ضخمًا، وسنحدّدُ -بسريّةٍ تامّةٍ- ساعةَ الصفر، وعندما تحين، سنحتلُّ -خلالَ لحظاتٍ- سماءَ الوطنِ الواسعة.

ما أشدّ رغبتي في السباحةِ شتاءً في عرض البحر! وما أشدّ توقي إلى مساعدة الجيران في قطف الزيتون، وأخذ قيلولتي المقدّسة تحتَ عريشة العنب!

أنوي -أيضًا- شراءَ درّاجةٍ هوائية، أفكّر في أن أُرَكِّبَ عليها جرسًا ذا صوتٍ أليف، وسلّةً بيضاءَ، أضعُ فيها حاجياتِ البيت، إلى جانبِ باقةِ أزهارٍ سعيدة.

وقد وضعتُ خطّةً جديّةً للتطوّع ضمن فريق الإطفاء، وربما أُصبحُ صيّادَ سمكٍ، يُشتهرُ بأنّه كلّما أمسكَ سمكةً حدّقَ في عينيها، ثمَ أعادها إلى البحر.

إنّي بحاجةٍ ماسّةٍ إلى البكاءِ، وأنا أشاهدُ الأفلامَ ذات النهاياتِ الحزينة. بحاجةٍ إلى مئةِ عام من الاستماع إلى صوت فيروز، وأنا واثقٌ بأنّني لن أجدَ أي صعوبةٍ في إطلاقِ ضحكةٍ مجنونةٍ على نكاتِ البقّالِ المكرّرة، وسيضرِبُ كَفّه بكفّي، وسأقولُ له: "أحلى أبو بهيج.".

لقد قرّرتُ أن تصبحَ الباميا التي طالما مقتُّها من بين وجباتي المفضّلة.

قرّرتُ أن أستمتعَ بالظهيرةِ المملّةِ في الصيف، وأن أعاني الحرَّ، وعلى شفتيّ ابتسامةٌ بلهاء.

ولن أنسى -أبدًا- تمضيةَ فترة العصر مع جارنا العجوز؛ حتى أُنصتَ بشغفٍ إلى ذاكرته، ولأُسهبَ في النظر في مساحاتِ الحكمةِ الشاسعةِ الممتدّةِ خلف عينيه.

سأعشقُ غسلَ الصحون، وسأتزوّج فتاةً تملك ابتسامةً تقتلُ المستحيل، سأقبّلها بحرارة، ونربّي أولادنا على حب الغيم والبشر، وسنحرصُ على تنميةِ قدراتهم الذهنيّة؛ حتى يتمكّنوا يومًا من فهمِ الشمسِ وإدراكِ الرياح.

سأغادرُ هذه المعركةَ الآن؛ من أجلِ أن أحيا، من أجلِ أن أنتصر، كي أعودَ إلى نفسي؛ نفسي التي صارت بعيدة؛ ولأرسمَ معَ قلبي حياةً مزدحمةً بالنهارِ والعصافير.

بذراعين مفتوحتين

مع كلِّ يوم ينقضي أتعلّم، وأُجيد بعضَ المهارات. لكنّني أخسرُ أيضًا؛ أخسر مَلَكاتٍ أجمل، وأفقدُ أشياءَ أهمَّ، كنتُ قد امتلكتُها صغيرًا. كنتُ أُتقن اللَّعب، والآن يلقّنوني العمل؛ كنت أفتحُ الفضاء، واليوم أبني الأسوار.

كنت أكثرَ نُضجًا، وأعمقَ وعيًا، كنتُ أعرفُ أكثر. تعلّمتُ المشيَ على الحائط، ومراقبةَ الغيوم، والقبضَ على الضوء. وفي كلِّ يومٍ كنت أشعر بالخوف من الموت ضحكًا. جمعتُ العشب من دونَ غاية، ورغبتُ في القفزِ ما دمت مستيقظًا، عرفتُ حبسَ الأنفاس، وأنا مختبئ، فيما الجميعُ يبحث عنّي، اختبرتُ الفطرةَ الذهبيّةَ التي دفعتني إلى اختيارِ تَسلّقِ أعلى الأشجار، وتلويثِ الثياب الجديدةِ بأسرعِ وقت، اختبرتُ الخيال، ودهشةَ الاكتشافِ التي ننسى عندها أن نتَنفس اختراعَ الأسرار، العيون المغمضة عند تعقيمِ جراحِ الركبتَين، الابتسامةَ المفاجئة التي تغيّرُ مسارَ دمعةٍ منهمرة.

وأنا طفل، عشقتُ عاداتي السيّئة؛ فحين لامني أبي على كثرة كلامي شعرتُ بالإطراء، أتقنتُ كثيرًا من فنون تلك الأيّام، كفنِّ الهروب من الحمّام والركضِ عاريًا، وفنِّ الغناء بلغةٍ مرتجلةٍ غيرِ موجودةٍ، ومن دون اكتراث لردّة فعلِ الآخرين، وفنِّ مواجهةِ أعتى الصراعات النفسيّة، كالاختيار بين كرة القدم وركوب الدرّاجة الهوائيّة.

وكان لديّ من الشجاعةِ ما يكفي للتفكير مطوّلًا في طريقةٍ للعب الكرة، وأنا على درّاجتي الزرقاء، لقد برعتُ في قيادتها بيدين مرفوعتيْن متحرّرتيْن؛ ما أشدّ حبّي الذي كان لها! وما أشدَّ احترافي في تشويه قَصّة شَعري بمقصِّ الخياطة. وما أقوى عنادي الذي كان، إلى درجةِ الجري وراءَ أحدهم حتى الموت.

تلك المرحلة جعلتني مثقّفًا جدًّا؛ لم أكنْ أُصدّقُ شيئًا؛ حتّى إنّني سخرتُ ممّن ادّعى أنّه يعرف كيف يكبرُ الأطفال.

وكذلك صرتُ مفكّرًا كبيرًا، والدليل أنّني لم أتوقف يومًا عن التفكير في سؤال: "من أين تأتي الرياح؟!".

لكنّ أكثرَ ما أحببته هو أنني أديب عظيم، ولن أنسى -أبدًا- قصصَ الرّعب الجميلة التي اختلقتُها؛ لتخويف الأصدقاء الجبناء.

في طفولتي، حَكَمَ علاقاتي الاجتماعيّة التسامحُ والمحبّة، لم تكن هنالك مشكلةٌ في أن أتصالحَ مع ابن الجيران، إثرَ عراكٍ عنيفٍ سببُه: هل هذه المخالفةُ ضربةُ جزاءٍ أم لا؟

في المدرسةِ كنتُ أفرحُ كلّما حِزتُ العلامة الكاملة وأشد العقوبات، معًا. احترمتُ الآخرين، وما زلتُ -حتّى الآن- أُجِلّ ذاكَ الفتى الموجودَ في كلِّ صَفّ، ذاكَ الذي كُنّا نلتفُّ حولَه في زاوية الباحة؛ كي يحكي لنا من أين يأتي الأولادُ وكيف.

وكان يكفي أحدَهم أن يكونَ ماهرًا في الضربات الركنيّة؛ ليصبحَ أعزّ أصدقائي، ولنؤسّس معًا عصابةً تخرّب شَعرِ البنات.

كانت أيّامَ نضالٍ أيضًا؛ فقد رفضتُ بحزمٍ الانتصاراتِ غير الواقعيّة التي حقّقها الكابتن ماجد، وهنا سأنتهز الفرصة لأقول لبسّام، ذاكَ البطلِ الذي وقف برجولةٍ في وجه الكابتن ماجد: "في هذا العالم ثمّةَ من كانَ إلى جانبك."، نعم، وقفتُ بقوّةٍ في صفِّ المظلومين، ولو لم أكبر، لانضممتُ إلى روبن هود ورفاقهِ في الغابة.

الهبوط على شجرة الحب

كان يمشي وقلبهُ يخفق كأردافِ غانيةٍ أبديّة، بخطواتٍ تزامنت مع إنهاءِ ذبابةٍ في الصّين مناورتها بالانقضاض على أنف أرنبٍ عجوز، وبينما كان يعدُّ أصابع قدميه، شعر أنّ رجليه بدأتا تطولان، وهو كَكلٍ أخذ يرتفع، انتابهُ الخطر، ثمّ رغب في سيكارة، أحسّ بالملل من هذهِ الورطة غير المتوقعة، ولا سيما بعد أن أخذت أسنانهُ تتساقط.

وهو نائم، أدركَ -نسبيًا- أنّه ما يزال نائمًا، وأنَّ هذه الأحداث تدور في حلمه، لم يخطر له أن يستيقظ؛ لذلك، لم يكن بوسعه التعامل مع حلمه إلا بواقعيّة رجلٍ منطقي، فالتفت إلى أكبر الأضرار التي لحقت به، وعندما انتهى من إحصاء الخسائر، باشر بمحاولة تركيب أسنانه التي سبق أن تجمّعت فوق لسانه، لكنّه لم يفلح؛ لأنّ لسانه قد تحوّل إلى مادةٍ طينيةٍ، ابتلعت الأسنان المقتلعة، لم يُسجِّل أيَّ ألم، وراح يفكّر في أنّ الأسنان لن تحتاج وقتًا طويلًا؛ حتى تنبجس من لثّته؛ لذا، سيكونُ جاهزًا في الصباح للقاء حبيبته (سمر) بأسنانٍ جديدة، فليس هنالك من داعٍ لأيِّ قلق.

"أنا من يجيدُ تدوين الهزائم في سجلِّ الانتصارات."، قال منتشيًا.

وبينما كان مستغرقًا في النّظر إلى أمواجِ السيطرة، والثّقة تلطم شاطئ استسلامه، نبَّههُ صقرٌ عابرٌ إلى أنّه أصبح على ارتفاع شاهق، وعندما أدرك بكلِّ جوارحهِ ذلك: توقّف عن التنفس، بدأ يختنق، ثمّ استيقظ.

تسمَّرت عيناه نصف دقيقةٍ في ساعة الحائط التي ورثها من جدِّهِ المأفونِ (صابر) الذي انتزع عقارب الساعة ليلة عرسه، قائلًا لعروسه: "معكِ، لا حاجة لي إلى الوقت.".

ضبط "سعد" في مخيّلته العقارب على الثّامنة والرُّبع، ثم نهض من فراشهِ معتزمًا الاستحمام، خرج عاريًا من الحمّام، ينضح ماءً، ويبقِّع البلاط، وبعد أن وقف أمام المرآة، خطر له أنّ الضّحك أمرٌ مفيدٌ؛ فقرّر -على الفور- أن يقوم بشيءٍ يضحكه، عندئذ همّ بالذهاب إلى المطبخ؛ ليلقي تحيّة الصّباح على ببّغائه العُصابيِّ (كاسر)، التقطه بكفيه الرطبتين، ثمّ تناول سكينًا، ارتعدت فرائصُ الببّغاء، وبدا وكأنَّ موجة صقيع قد أصابته للتو، ضاحكًا فتح سعدٌ أحد الأدراج، وتناول منه حبلًا من ثلاثة أمتار، ثمّ عاد ليقف أمام المرآة مُصطنعًا ابتسامةً يُمهّد من خلالها لضحكه المأمول.

قطع الحبل من منتصفه، وربط نصفه الأوّل بقدم الببغاء اليمنى، كاسر، وعلى غير عادته، نظر إليه نظرةً مكتنزةً بالحكمة والاحتواء، وبعد أن انتهى من ربط النصف الثاني من الحبل بقدم الببغاء اليسرى، أخذ يلفُّ النصف المربوط بالقدم اليمنى بكتفه الأيمن، والنصف الثاني بكتفهِ الأيسر، مبقيًا مسافة نصف مترٍ من الحبل بين كل كتفٍ وقدم، وعندما خلص من ذلك، تذكَّرَ أنّه فعل ما فعله؛ من أجل أن يضحك، فبدأ يضحك محدّقًا إلى هيأته الجديدة.

فجأةً، تبددت ضحكته، حيث تملّكه يقينٌ مطلقٌ بأنّه المرآة لذاك الإنسان- الببغاء، هذا اليقين دفعه إلى الشعور بالمسؤوليّة، فأخذ يفكِّر في أنّه لو بقي في البيت سيكون أكثر شخصٍ أنانيٍّ عرفته البشريّة؛

لذلك، عليه أن يخرج ليُري العالم كيف تحوّل إلى الإنسان- الببغاء.

" لطالما ربتني أمي على الكرم، وأداء الواجب، علينا فعل ذلك يا كاسر"، قال سعد. ومن دون تفكيرٍ طويلٍ، خرج إلى الشرفة، ووقف شامخًا كديكتاتورٍ عادل.

استشعر كاسرٌ القرار الجنونيَّ الذي اتخذه سعد، فاعترض منفجرًا: "لماذا اشتريت ببغاءً عُصابيًا، ولم تشترِ ببغاءً مغامرًا أيّها الأحمق؟". قال سعد: "اهدأْ، لا تغضب، داخل كل ببغاءٍ حقيقيٍّ يقبع صقرٌ جارح، أقسم على إنّي اشتريتك؛ لأنّ لعينيكَ نظرة صقر".

صمت الببّغاء برهةً، ثمّ اشرأبَّ منقاره الملوّن، تهيّأ ليحمل وزن صاحبه، وصار الجناحان يخفقان، ارتفعا عن أرضيَة الشّرفة قليلًا، ثمّ بدأ الطيران. إنّما سرعان ما خاف سعد من أن يُصاب بنزلة برد، ذلك أنّ جسدهُ ما يزال مبللًا، لكن في النهاية كان أداء المهمّة بالنسبة إليه يستحق التضحية.

***

على ارتفاع مئة مترٍ، بدا مشهد البلدة خلابًا لسعدٍ الذي نسي أن يرتدي ثيابه، اتّجه إلى سوق الخضار، المكان الأكثر اكتظاظًا بالبشر في هذا الوقت من الصباح، وفور وصوله، فغر الناس أفواههم مندهشين، توقفت عمليات البيع والشراء... " لقد جُنّ سعد، ويبدو أنّ العالم رضخ لجنونه، كيف لإنسانٍ أن يطير مُعلقًا بببّغاء؟"، تساءل العمدة.

حلّق سعدٌ الطائر فوق السوق، جيئةً وذهابًا، في استعراضٍ تضمَّن مجموعةً من الحركات الملفتة؛ لكي يشهد أكبر عددٍ ممكنٍ من الناس تحوّله إلى الإنسان- الببغاء، حيث راح يفتح رجليه، ويلوح بيديه، فكان جسده العاري للناظرين جليًا، احمرّت وجناتُ بعض النساء، وبعضهن بالغن في دهشتهن من طيرانه، كتكتيك استخدمنه؛ لتغطية محاولتهن تقدير درجة فحولته.

استنفر عريّه بعض المحافظين؛ فاقترحوا على العمدة أن يسقطوه ببندقية صيد، لكنّه طلب منهم التريُّث، ريثما يجد حلًا لهذا المأزق المفاجئ.

أمّا سعد، فقد كان في عالمٍ آخر، كان يطير، وفي أثناء تحليقه تذكّر أنّ موعدهُ مع "سمر" قد اقترّب، وقرر أن ليس عليه أن يذهب إلى هناك، بقدر ما عليه أن يهبط هناك.

بعد جولة الطيران السابعة، كان رجال الشرطة قد تجمعوا عند مدخل السوق، وعندما وقف سعد على مدخنة أحد المتاجر، بطلبٍ من الببغاء المتعب، صاح العمدة: "انزل يا سعد، كفاك جنونًا".. "لم أعرف أنّ الجنون مرادفٌ للطيران"، ردَّ سعد.

تدخّل رئيس شرطة البلدة بحزم: "انزل، فأنت رهن الاعتقال بتهمة دعس الحسِّ العام"..

كان عدد رجال الشرطة الذي فاق العشرين دليلًا حاسمًا -بالنسبة إلى سعدٍ- على أنّه في مأزقٍ خطِر، لم ينزعج من ذلك، بقدر امتعاضه من إحساسه بضرورة التفكير للخروجِ من هذا الوضع، والتفكير هو أكثر ما لا يطيق. "ماذا نفعل؟"، سأل ببغاءه.

صمت كاسر للحظة، ثم تغوّط، وبريقٌ يُفلت من عينيه، رفرف بأجنحته، وانطلقا باتجاه ساحة البلدةِ؛ حيث سمر لا بدّ من أن تكون قد وصلت إلى مقهى "البركان الخامد"..

على طاولةٍ أمام المقهى، وبالقرب من حوضٍ زرعت فيه الورود، كانت سمر تتنفّس، وتراقب قلبها الذي يتلهف لرؤية الحبيب، على هيئة نبضٍ سريع.

فوق العيون المحدقة، والشرطة المهرولة، قطع سعد عدّة أحياء، وعندما اقترب من "برج الساعة" الذي يقع في مركز الساحة التي تتوسط البلدة، انخفض، شيئًا فشيئًا، إلى أن حطّ على قمته، وبصوتٍ لم تشهد البلدةُ قوته من قبل صاح: "سمر، حبيبتي"؛ توّقف فنجان القهوة في منتصف الطّريق، بين شفتيها والطاولة، تمامًا أمام قلبها، رفعت الهواء بجفنيها قليلًا، ثمّ وقفت، كشجرةٍ فتحت ذراعيها، وانطلق الطائر عاريًا نحو الحب، بلا شيءٍ نحو الحب، إلى أن غطّ على غصن حبيبته الأيسر، يصغي إلى دقات قلبها، فحسب، وينسى أنّ الشرطة ما تزال تهرول.

صانع الذكريات

في أحد أيام الصيف الذي بلغت فيه الخامسة عشر من عمري، دخل والدي إلى غرفتي، نظر إلي، وقال: خذ هذا لك، ثم خرج، أعطاني دفترًا ذا غلاف بني، وضعت الدفتر أمامي على الطاولة، ورحت لدقائق أحاول أن أخمن ماذا يحتوي، مصرًا حينذاك على الاحتفاظ بذلك الإحساس الغامض، من خلال تغليف تلك اللحظة بما يليق بها من سحر و جلال، ثم فتحه بهدوء. كان قد ألصق على الصفحة الأولى صورة لي، وأنا في أيامي الأولى، وبعدما فشلت في الربط بيني وبين ذاك الطفل الذي يستلقي على ظهره في الصورة، انتقلت إلى الصفحة الثانية التي كتب في أعلاها، من الجهة اليسرى، بقلم أسود: 10تموز 1989، وهو يوم ميلادي، وفي منتصف السطر الأول، كان العنوان: الساعة 12:45 ليلًا، وهي ساعة ولدت. أخذت نفسًا طويلًا من تلك الساعة، وبدأت القراءة. بعد بضع صفحات شعرت بأنني لا أقرأ بقدر ما أتذكر، أتذكر من ذاكرة ليست لي، ذاكرة صنعها لي أبي، تمتد من لحظة ولادتي، إلى اليوم الذي أتممت فيه الخامسة، ولقد تشارك مع أمي في نسجها، بعد أن عقدا اتفاقًا على ألا يقرأ أي منهما ما كتبه الآخر، وبذلك امتلكت روايتين عن أول خمسة أعوام في حياتي. لم يقدما لي ذاكرة خارجية، تتضمن كثيرًا من التفاصيل عني، وعن حياتنا كعائلة، فحسب، وإنما حبًا ورؤية جميلة للحياة، وأشيائها كذلك. وقد أخذهما الحرص والروعة إلى درجة أنهما حتى دونا تاريخ اليوم الذي قلت فيه –أول مرة– كلمة "بب" التي تعني "دب".

وفي عيد ميلادي الخامس، في الصفحة الأخيرة، اختتما القصة بعبارة: اليوم أصبحتَ قادرًا على صناعة ذاكرتك الخاصة... بالتوفيق. الآن، وبعد أن انتهى أبي من صنع ذاكرته، أضع الدفتر البني إلى جانبي، أحدق فيه، من دون أن أجرؤ على فتحه؛ أكتفي بلمس غلافه، فحسب، محاولًا إقناع نفسي بأن صانع الذكريات قد ذهب، وبأنه لن يعود، وأنه قد غادرنا إلى الأبد، ماحيًا برحيله الحدود بين الجرح و الذاكرة.

الزّمن ودرّاجتي العجوز

اليوم صباحًا؛ ولسبب أجهله، ذهبت إلى الفناء الخلفي للبيت، ووقفت أمام ركنٍ مخصصٍ لنفي الأغراض المنبوذة التي لم تعد صالحة للاستعمال، ومن بينها رأيت دراجتي الهوائية السوداء، من نوع "كورس"، وكنت قد اشتريتها حينما كنت في الصف السابع، وذلك بعد أن كبرت، في حين بقيت دراجتي الزرقاء صغيرة؛ لذا، كان لابد من أن نفترق. وعلى الرغم من محاولة أبي إقناعي باقتناء دراجة رياضية، إلا أني أصريت على أن أحصل على دراجة الكورس، هذه؛ متأثرًا بشكل الدراجات الهوائية التي كانت تظهر في أفلام الكرتون المستوردة من اليابان. تجمدت لدقائق أمام تلك الأشياء المهجورة، تمر في رأسي عشرات الصور الملونة عن تلك الأيام، نعم، هذه هي الدراجة نفسها التي كانت أعز أصدقائي، تتكئ بحزنٍ على الجدار، وحيدةً وصامتة، ترتجف من البرد، قد تآكلها الصدأ والنسيان، جرسها تالف، وعجلاتها مهترئة، والسلة البيضاء لم تعد بيضاء.

انتشلتها برفقٍ من بحيرة الزمن الراكدة، وقلت لها: ما رأيك في جولة؟

– ابتسمت، ثم قالت: لقد أصبحت عجوزًا كما ترى، كيف ستقودني؟! لم أعد قادرة على حملك، اجلس قليلًا، فحسب، اشتقت إليك.

– وضعت يدي على مقودها، وسألتها: ألست حاقدة علي؟ لقد خذلتك، ولم أوفر لك حياة لائقة بعد التقاعد.

– غمزتني قائلة: لا بأس، لدي تصور عن قسوة البشر. عانقتها بقوة ثم قبّلتها، كانت مبللةً من المطر، وقلت لها: إذا لم يعد بمقدورك أن تحمليني، فأنا سأحملك.

رفعتها من مكانها، ووضعتها على كتفي، وخرجنا من المنزل، ورحت أجري في الشوارع والأيام، رحت أجري في الذكريات، وكلما أسرعت أكثر، كانت تضحك أكثر؛ حتى تطايرت دموعها على وجه الطرقات، وعندما شعرت أن قلبي سيتوقف، وأنه لم يعد بإمكاني الركض، ركضت أكثر، ركضت علني أصل إلى هناك، إلى تلك اللحظة التي تبعد خمسة عشر عامًا، حين التقيتها –أول مرة– في أحد المحالّ، حين نظرت إلى أبي، ثم أشرت إليها بإصبعي: هذه هي.

شريحةُ لحمٍ تجيدُ التذكر

مجرّدُ شريحة لحم تجيدُ التذكر، هذا أنا، شريحةُ لحمٍ اقتُطعت من "الطيز الكونيّة الكبرى"، ورُميت في مقلاةِ هذا الكوكب، كان ذلك في ليلةٍ جهنميةٍ من تموز. وبخلاف غالبية البشر، فإني أمتلك بعض الذكريات اللزجة عن حياتي كجَنين، وقد علمتُ أخيرًا أني ورثت عن جدي هذا الادعاء؛ ما رسّخ قناعتي بأني لستُ أكثر من آفاتٍ موروثة.

استمرت معركة ولادتي ثلاثة أيام، قاتلت فيها بضراوةٍ؛ رافضًا اقتيادي إلى هذا العالم، استخدمت فيها كل أساليب العصيان الجَنيني؛ إذ كنت أقف على قدميَّ، وعندما أتعب أستبدلهما بيدي، أجلس القرفصاء، أو أستلقي؛ واضعًا رجلًا فوق أخرى. وفي حالات الخطر القصوى كنتُ أفتح ذراعيّ؛ متخذًا وضعيّة "الجنين المجنَّح".

كانت المباني المجاورة للمستشفى تهتز من صرخات أمي المجلجلة، ومع كل صرخةٍ كنت أبكي، أفرد جناحيّ أكثر، وأبكي بدموع نسرٍ في الأعالي، يذرفها من دون أن يدري بها أحد.

أفقدتني آلامُ والدتي القدرة على الصمود؛ فانهارت معنوياتي في الليلة الثالثة، وقررتُ الاستسلام. وبنبلِ الفرسان أنهيتُ عذاباتها، ورضختُ لغريزة البقاء، مضحيًا بموتي في سبيل حياتها.

أطلقوا عليّ اسم: أنس، ويُلفظُ بلهجة أهالي منطقتي:

بفتحِ الهمزة، كذلك بفتح النون، ثمّ بكسرها كسرًا خجولًا، وبلمحِ السّمع، وأخيرًا بهَسِيسٍ عجائز بعد السين.

قَدِمتُ هزيلًا، قانطًا، وبرغبةٍ دائمةٍ في التبول، غيرَ مأخوذٍ بألوان الدنيا الزائفة؛ ولكي أُفلتَ من مأزق الوجود، صدّقتُ فكرةَ أني أعيشُ في رحمٍ أكبر، فحسب، وكل ما في الأمر أنني لا أستطيع لمس حوافه، فحسبُ.

هكذا أسيرُ في حياتي، بوصفها رحلة تصحيح لخطأ الولادة، ستنتهي يومًا بحلٍّ جنائزيٍّ مهيب؛ وحتى ذلك الحين، ستبقى قطعةُ اللّحم -هذه- وحيدةً على المائدة، تتناولها ببطءٍ الأحزانُ وديدانُ الذاكرة.

أنس ناصيف

كاتب سوري، مواليد 1989، درس الفلسفة في جامعة دمشق، مهتم بكتابة القصة القصيرة والشعر، له عدد من المواد المنشورة في مجلات ومواقع الكترونية عربية، كتبَ هذه النصوص بين عامي 2014 و2017.

ميسلون
للطباعة والنشر والتوزيع
Maysaloon for printing, publishing and distribution

السعر: 6 دولارات

ISBN 978-605-79645-7-1
9 786057 964571